

المحاضرة الخامسة: النظريات البيولوجية المفسرة للسلوك

الإجرامي

الهدف القائم دائما لعلم النفس هو محاولة التحكم وضبط السلوك بعد فهمه وتفسيره سعيا لتحقيق التوافق النفس الاجتماعي للفرد والمجتمع، وهذا ما ينسحب أيضا على السلوك الإجرامي من خلال محاولات العديد من العلماء والباحثين تفسير هذه السلوك متبنين في ذلك مداخل نظرية متباينة أحيانا و متداخلة أحيانا أخرى. وقد كان التفسير الأولي للجريمة تفسيرا دينيا ربطها بالرديلة والمعصية كنزعة شيطانية، ثم فلسفيا غير بعيدا عن سابقه أين ربطت بعامل الأخلاق على غرار ما ذهب إليه كانط الذي اعتبر "أن إرادة الخير هي الشيء الوحيد الذي يعد خيرا على الإطلاق دون قائد أو شرطي وترتبط هذه الإرادة بمفهوم الواجب ". ثم توالى الأعمال العلمية التي حاولت تسليط الضوء على السلوك الإجرامي وتفسره تفسيرا علميا جزئيا كان أو متكاملا. نظرا لكثرة النظريات التي تناولته بالتفسير فقد صنفت في اتجاهات مثل الاتجاه الفردي الذي يضم النظريات البيولوجية والنفسية، الاتجاه الاجتماعي بنظرياته المختلفة والاتجاه التكاملي، ومن أهم هذه النظريات البيولوجية. رغم أن جذور هذا التفسير ترجع إلى تأملات فلاسفة اليونان القدامى في جوهر الطبيعة البشرية مثل ابيوقراط، سقراط، أفلاطون وأرسطو الذين عزوا الانحراف إلى نفس فاسدة ونفسية مضطربة أساسها عيوب خلقية جسمية وانحرافات عقلية يمكن التعرف عليها من خلال خطوط اليدين والرجلين، تقاطيب الوجه، فقد أحدث هذا الاتجاه تحولا في

دراسة السلوك الإجرامي، حيث انتقل الاهتمام فيه من السلوك إلى خصائص القائمين به والأسباب المحتملة لانحرافهم ومن بين أهم هذه النظريات نذكر مايلي:

1- نظرية لمبروز Lombroso's theory : ل (1835-1909)César Lombroso

فسرت السلوك الإجرامي على أساس وجود تكوينات عضوية محرّكة له، فقد اشتغل رائدها طبيباً بالجيش الإيطالي وعمل بالمستشفيات العقلية مما أكسبه خبرة ميدانية أتاحت له فرصة التعامل مع المجرمين وغير المجرمين من حيث التكوين الجسماني، ومن هذا المنطلق مكنته أبحاثه من وضع نظريته التي عرضها في كتابه "الرجل المجرم" الصادر سنة 1876 الذي قال فيه بأولوية دور العوامل الوراثية التي تؤدي بصاحبها إلى ارتكاب الأفعال الإجرامية: "إن المجرم شخص بدائي يتميز بملامح خاصة توفرت فيه عن طريق الوراثة، وأنه مطبوع على الإجرام" وقد توصل إلى:

- السمات الانحطاطية الخلقية (صفات تشريحية، عقلية ونفسية يطلق عليها صفات انحلالية) تتوافر لدى معظم المجرمين لا لدى جميعهم.
- السمات الوراثية وحدها غير كافية لارتكاب الجريمة وإنما تؤدي إلى توافر الميل نحوها إذا اقترنت بعوامل معينة قد تكتسب بعد الميلاد، وبالتالي فهي تكشف عن شخصية المجرم .

وقد صنف لمبروزو المجرمين إلى خمسة أنماط هي: المجرم بالفطرة (يتوفر على من 5 إلى 6 صفات بدائية)، المجرم المجنون (ضعف عقلي يجعله لا يميز بين الخير والشر ويصنف إلى صرعي، سيكوباتي، مجنون)، المجرم بالعادة (ضعف عقلي يكسبه استعداداً لذلك إذا ما توافرت الظروف)، المجرم بالصدفة (ليس لديه ميل للإجرام لكن تأثير العوامل الخارجية الطارئة التي بدورها تضعف من مقدرته على كبح جماح نفسه فيقدم على الجريمة)، المجرم بالعاطفة (يقترف جرائمه نتيجة لعاطفته المرهفة والمتأرجحة والتي تتأثر بأسباب متعددة أهمها الغيرة والحسد والحماص والاندفاع والذود عن الشرف والأخلاق). وبذلك فقد أرسى قواعد و دعائم الاتجاه الأنثروبولوجي في علم الاجتماع حيث وضع نمط بيولوجي أساسي

و نفسي مرتبط به واعتبره أساسا لتمييز المجرم عن غيره ، وقد اعترف بعد ذلك بالعوامل الاجتماعية من بين دوافع السلوك الإجرامي مع تمسكه بأفكاره السابقة.

كما تجدر الإشارة أن أعمال لمبروزو تبعتها أعمال إيطالية أخرى لاتباعه وتلاميذه على غرار "بينينيوي دي توليو Binigno Di Tollio" الذي توج عمله بوضع نظرية التكوين أو الاستعداد الإجرامي الذي نص فيها : " أنه كما يتمتع الإنسان بتكوين نفسي وتكوين عقلي وتكوين عصبي يجعل له قابلية الإصابة بأمراض معينة كالسل والتهابات المسالك البولية وغيرها، يوجد أيضا تكوين إجرامي فإذا ما صادف هذا مؤثرا خارجيا يوقده، انطلقت غرائز الفرد .. فيقع الفرد في هاوية الإجرام" ولا يوجد هذا الاستعداد على مستوى كل أفراد المجتمع، إلا أنه في حالة وجوده يصنف حسب درجته إلى:

- استعداد إجرامي أصيل :حيث يكون حدوث الظاهرة الإجرامية بسبب التكوين العضوي(عصبية ، نفسية أو غددية أو حيوية).

- استعداد إجرامي عرضي: حيث الظروف البيئية الاجتماعية المحيطة سببا في السلوك الإجرامي.

وفي هذا الاتجاه نجد طرح إنريكو فيري الذي أرجعه لتفاعل عوامل داخلية فردية خاصة وأخرى خارجية تتعلق بالبيئة الاجتماعية والطبيعية المحيطة به.

2- نظرية جورنج Charles Goring : توصل هذا الباحث البريطاني

لرفضه لفكرة الارتدادية من خلال دراساته إلى أنه لا توجد فوارق ملموسة بين مجموعات المجرمين المختلفة أو بين المجرمين وغيرهم من الناس من حيث توافر علامات الارتداد؛ غير أن المجرمين يتميزون بصفة عامة بنقص في الوزن والطول، ويعتقد "جورنج" أن هذا النقص البدني حقيقة لها أهميتها إذ هو دليل على انحطاط عام موروث في طبيعة المجرم يبدو في قياس مستواه العقلي وغير ذلك من العوامل التي يكون للوراثة دخل فيها وفي هذا الانحطاط يكمن الميل إلى الجريمة. وقد بينت الدراسات الإحصائية التي قام بها "جورنج" وجود تشابه بين الآباء والأبناء في السلوك الإجرامي، وذلك يعود في نظره إلى عوامل وراثية، فحرص على تأكيد الوراثة في انتقال الميول الإجرامية من جيل إلى آخر مستبعدا أي تأثير للوسط أو التقليد أو الظروف الاجتماعية في إنتاج هذا السلوك.

3- نظرية إرنست هوتون Ernest. Hooton 1954-1887 على الرغم من

الانتقادات التي وجهت لنظرية الحتمية البيولوجية استخلص هذا الأنثروبولوجي الأمريكي من دراساته أن المجرمين أدنى عضويا من غيرهم، حيث استنتج أن التركيب العضوي للمجرم يختلف باختلاف نوعية الجرائم المرتكبة، فالقاتل مثلا يكون أقرب إلى الطول واللص أقرب إلى القصر والنحافة، والجرائم الجنسية مرتكبتها أقرب ما يكون إلى الشكل المملوء القصير، فتبين له أن توفر ارتباط نوع معين من الشذوذ البدني لدى المجرم بالميل إلى ارتكاب نوع معين من الجرائم ؛ وعليه فإن التخلص من الجريمة لا يمكن أن يتم إلا ببتتر غير اللائقين جسديا وعقليًا وخلقيًا أو بعزلهم عزلا تاما.

وفي سياق ربط السلوك الإجرامي بالمحددات البيولوجية برزت محاولات حاولت ربطه بالشذوذ الكروموزومي على غرار نظرية الكروموزوم الزائد عند الذكور (XYY) وارتباطه بالسلوك الإجرامي والانحرافي لديهم، وأيضا محاولات أخرى ربطته بالمحددات التكوينية المتعلقة بنمط بنية الجسم Typology والتي تعود للأمزجة الأربعة للطبيب اليوناني أبوقراط وأوصافها النفسية حسب جالينوس، ثم ارنست كرتشمير E. Kretchmer الذي حاول وضع علاقة بين أربعة أنماط جسمية وأنماطها المزاجية المميزة لها وبين هذه الأخيرة والسلوك الإجرامي (النمط الواهن يقابله شبه الفصامي وجرائم السرقة والغش البسيط...)، ويرى أن هذه الأنماط ليست متميزة تماما، إذ قد تختلط ميزاتها في بعض الأفراد، وفي نفس السياق ذهب شيلدون William Sheldon إلى أن الجسم وبنيته يحددان السلوك، وأن الفروق الفردية في الشخصية والسلوك تتحدد أساسا بالفروق في الوظائف الفيزيولوجية وقد افترض وجود ثلاثة أنماط جسمية ثم رابع بعد يتصف كل منها بصفات مزاجية محددة تجعل من بعض أصحابها أكثر استعدادا لإظهار بعض أشكال السلوك العدوانية.

ووفقا لكونراد لورينز (Konrad Lorenz، 1966)، الذي فاز بجائزة

نوبل في علم وظائف الأعضاء والطب في عام 1973، نحن جميعاً حاملون لغريزة حيوانية تريد أن تظهر نفسها، ولكن يتم دائما قمعها بسبب نظام نشط للسيطرة الاجتماعية و هذا القمع هو ما يحررنا ويحولنا إلى بشر، حيث في هذا النظام الدماغ هو العضو الذي يوجه سلوكنا، وبالتالي

هو المكون الأساسي الذي يجب النظر فيه لفهم أصل السلوك وأن مناطق دماغية محددة ، وهرمونات متنوعة ، وناقلات عصبية تنظم مثل هذا السلوك. من المهم التأكيد على أن الهرمونات والمواد الكيميائية لا تسبب سلوكًا عدوانيًا؛ بل تقلل أو تزيد من حدة التعبير عن العدوانية .

ومن هذا المنطلق يفترض بعض الباحثين أن بعض الاضطرابات الفيزيولوجية يمكن أن تؤدي إلى السلوك الإجرامي كالنشاط المفرط للغدد الصماء أو نقصانها الذي يؤدي أحيانا إلى إختلالات عقلية خطيرة، واضطرابات في جوانب الشخصية وانفعالاته وسلوكه الذي قد يفضي إلى الانحراف والوقوع في الجريمة، وخاصة الغدة الكظرية التي تكون سببا في ذلك. كما أن اضطرابات عمليات التمثيل الغذائي قد تؤدي إلى السلوك الإجرامي، كما أن بعض العاهات الحسية تعيق تعرف الفرد على المؤثرات البيئية، فضلا على أن هذا العجز يؤدي إلى الشعور بالدونية والنقص لدى صاحبه فيترتب على ذلك مشكلات نفسية تفضي إلى اضطراب الشخصية، حيث استنتج الباحثون ارتباط ذلك ومختلف التشوهات الجسمية والعيوب الخلقية بالسلوك الإجرامي.

تقييم النظريات البيولوجية:

كل المحاولات التفسيرية البيولوجية للسلوك الإجرامي هي نتيجة التقدم الكبير الذي أحرزته الدراسات العلمية الخاصة بوظائف الغدد والوراثة

وعلم الأجنة. فهي تعطي الدور الجوهرى للعوامل الوراثية والجسمية للفرد في إحداث السلوك الإجرامى، كما تعتبر أن الاستعدادات التكوينية التي توجد لدى الفرد من تشوهات وضعف في القدرات العقلية و نقص في القدرات الجسمية؛ تعيق توافق صاحبها مع البيئة المحيطة التي يعيش فيها، مما يجعلها كمحركات للخروج عن تواضعات المجتمع والتمرد عليه بما يقدم عليه من سلوك إجرامى. ورغم فتحها لأبواب للبحث العلمى المتخصص في هذا المجال؛ إلا أنها لم تسلم من النقد الذي وجهه عديد من العلماء:

- اعتبر فولد جورج (1958) B. VOLD. GEORGE أن هذه

التفسيرات هشة.

- ريتشارد كورن R.KORN انتقد كل المحاولات التي من شأنها أن

تمنح الأهمية القصوى للعوامل العضوية في تفسير الجريمة وأكد

أنها تفنقر إلى العلمية والدقة في البحث وأن الفروق التي تحدث

عنها لمبروزو ترجع إلى الصدفة ولا تعكس فروقا حقيقية بين

المجرمين وغير المجرمين، كما كان النقد الذي وجه للمدرسة

قائم أيضا على أن أنصارها كانوا يستخدمون أسلوب القمع بحكم

السلطة التي يمتلكونها على الجنود، ومما يضعف أيضا

مصادقيتها أن الطفل إذا ما فحص و وجد لديه دلائل مجرم

يؤخذ مباشرة إلى السجن حسب تصنيف لمبروزو و أنصار

النظرية البيولوجية.

- أهملت النظرية العضوية دور العوامل الاجتماعية في السلوك الإجرامي .
- قد لا تحدث الجريمة نتيجة تفاعل العوامل الخارجية بالعوامل الفردية؛ بل نتيجة تغلب العامل الخارجي.
- رغم أن هوتون ذكر في منهجيته العوامل الاجتماعية أساسا للمقارنة بين المجرمين وغير المجرمين واستعان بعينة ضابطة إلا أن استخدامه لنظرية الدونية البيولوجية كأساس للتفسير يعرضه للانتقادات السابق ذكرها في.
- لا يوجد في الواقع ما يسمى بـكروموزوم الإجرام لأنها ظاهرة لها أبعادها الاجتماعية والثقافية.